الجزء الأول

أدب السلف

في التعامل مع الناس

تأليف

أبي عبد الرحمن رضا بن عبد الحميد فتح الله

تقديم

د/ ياسر بن حسين برهامي

من أئمة الدعوة السلفية بالثغر السكندري

عمر بن عبد العزيز بن محمد القاسمي

مدير مكتب وزارة العدل والأوقاف

برأس الخيمة

أحمد بن عبد العزيز الحداد

كبير المفتين بدائرة الشئون الإسلامية

والعمل الخيري بدبي

توزيع

دار الخلفاء الراشدين

الإسكندرية أبو سليمان ش عمر

أمام مسجد الخلفاء الراشدين

٠١٠٦٧١٤٧٦٨ - ٠١٠٥٠١٣١٥١

دار الفتح الإسلامي

الإسكندرية مصطفى كامل

بجوار مسجد الفتح الإسلامي

٠١٢٥٨٣٤٥٧٤

دار الخلفاء الراشدين
الإسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

أدب السلف
في التعامل مع الناس

تأليف

أبي عبد الرحمن رضا بن عبد الحميد فتح الله

عدد الصفحات: ٢٣٢ صفحة

المقاس: ١٧ × ٢٤

رقم الإيداع: ٢٠٠٦/٢٤٢٢٨

الإدارة: ٠١٠٥٠١٣١٥١ المبيعات: ٠١٢٠١٥٢٩٠٨

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله ﷺ أما بعد:

فإن الدعوة إلى الله بالسلوك والتعامل مع الناس أعظم أثرًا من مجرد دعوتهم باللسان، بل إن استدلال خديجة رضي الله عنها على أن الله ﷻ لا يخزي نبيه ﷺ بأنه يقري الضيف ويحمل الكل ويكسب المعدوم ويعين على نوائب الحق. فمكارم الأخلاق واستعمال الأدب في التعامل مع الناس من أعظم الأسباب في نجاح الدعوة وقد فطر الله العباد على قبول الدعوة من أجلها.

وهذا البحث «أدب السلف في التعامل مع الناس»، الذي أعده الأخ الكريم رضا عبد الحميد فتح الله قد جمع فيه جملة من هذه الآداب التي تعامل بها سلفنا الصالح مع الناس، قلَّ العاملون بها وكثر المحتاجون إليها، نسأل الله أن ينفع به كاتبه وقارئه وناشره والحمد لله رب العالمين.

كتبه

د/ ياسر بن حسن برهامي

عفا الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله وليِّ التوفيقِ، الداعي إلى اتباعِ أقوم طريق، والسيرِ في نهجِ خيرِ رفيق، والصلاةُ والسلامُ على من كمَّله الله تعالى إنسانًا، وجعل بعثته امتنانًا، وشريعته برهانًا، سيدِنا محمدٍ ﷺ الذي بعثه الله تعالى مُزكِّيًا ومعلِّمًا، القائل: «ما نحل والدٌ ولدَه أفضلَ من أدبٍ حسن» كما أخرجه أحمد والترمذي من حديث سعيد بن العاص رضي الله عنه، وبعدُ:

فإنَ الإسلامَ دينُ الأدبِ والمروءةِ، ودينُ الأخلاقِ والفضائلِ، ومكارمِ الأمورِ وعليائِها، من أحبه الله شَّرفه به دينًا، وهذَّبه به سلوكًا، ولا خير أفضل من ذلك كما يشير إليه قوله سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٥].

والمعنى: لا أحسن منه، فإنه قد جمع المحاسن كلها بإسلامه وإحسانه، واتباع هدي خليله إبراهيم، الذي تمثله المصطفى ﷺ كما قال الله تعالى له: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٣]، فلذلك كان ﷺ الأسوة الحسنة التي جمع الله فيها ما تفرق في كافة أنبيائه ورسله حتى قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤] ولم يقل مثل ذلك في أحد من أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام أجمعين، ولذلك كان يعبر عن بعثته بقوله: «بعثتُ لأتمِّمَ صالحَ الأخلاق» كما أخرجه مالك وأحمد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وجعل خيرية أمته في سلوك منهجه واقتفاء أثره، كما قال عليه الصلاة والسلام: «خيارُكم أحسنُكم أخلاقًا الموطَّؤن أكنافًا» كما أخرجه الطبراني في الصغير والأوسط من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

فهذه الخيرية الحقيقية التي يسبق بها المرء غيره، يمثلها الأدب الإسلامي الجم، الذي هو جوهر الأخلاق، بل هو أحد ركائز الدين الأساسية، كما دل على ذلك حديث جبريل عليه السلام في قصة سؤاله عن الإسلام والإيمان والإحسان، فإنه لم يسأل حتى تمثل الأدب الجم بأن جلس بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع يديه على فخذيه، ثم سأل أسئلته المشهورة، وبعد ذلك قال المصطفى صلى الله عليه وسلم: «هذا جبريلُ أتاكم يعلمُكم أمرَ دينِكم» كما أخرجه البخاري ومسلم وغيره من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وهذا ما فهمه السلف الصالح رحمهم الله تعالى، فقد قال عبد الله بن المبارك -رحمه الله تعالى-: «نحنُ إلى قليلٍ من الأدب أحوجُ منا إلى كثيرٍ من العلم. والسر في ذلك أن الأدب يأتي بالعلم، فإنه يحمل صاحبه على التواضع للعلماء فتعظم استفادته منهم، كما يحمله على الأدب مع الله تعالى ورسوله، وتلك حقيقة التقوى التي هي مفتاح العلوم، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ﴾ [البقرة:٢٨٢] وهذا الذي جعل أشج عبد القيس رضي الله عنه، أحسن وأفضل قومه الذين ابتدروا النبي صلى الله عليه وسلم محبة له وشغفًا به، لكن الأشج لما استعمل كمالَ الأدب في التهيؤ للقائه صلى الله عليه وسلم، وحسنَ السؤال، كان أحبَّ إلى الله تعالى ورسوله، فقال له عليه الصلاة والسلام: «إن فيك خلتين يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة» كما أخرجه مسلم وغيره من حديث ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، وهو الأمر الذي استحق به المتأدبون مع الله تعالى ورسوله الثناء الجميل في الذكر الحكيم بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات:٣] في مقابل الذين لم يتأدبوا فاستحقوا الذم بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات:٤] ولا عَجَب في أن يكون حال المتأدبين مع الله تعالى ورسوله بتلك المثابة، فقد قال يحيى بن معاذ رحمه الله:

«من تأدب بآداب الله صار من أهل محبة الله»، وقال الدقاق: «العبد يصل بطاعة الله تعالى إلى الجنة ويصل بأدبه في طاعته إلى الله تعالى».

فإن لم يتأدب بآداب الله تعالى وآداب رسوله فلا ريب أن يكون محرومًا بل مذمومًا، كما ذُمَّ أولئك الأعراب، في محكم الكتاب، ولذلك قال يحيى الدقاق: تعالى: تَرْكُ الأدب يوجب الطرد، فمن أساء الأدبَ على البساط رُدَّ إلى الباب، ومن أساء الأدب على الباب رد إلى سياسة الدواب.

وقال ذو النون المصري -رحمه الله تعالى-: «إذا خرج المريد عن استعمال الأدب فإنه يرجع من حيث جاء».

وهذا هو حال كثير من الناس اليوم، الذين لم يحفظوا للعلم رسومه، ولا للإسلام خصائصه، ومن أَجَلِّ خصائصه العظمى الأدب مع الله تعالى، والأدب مع رسول الله ﷺ، والأدب مع العلماء والأدب مع الآباء والأمهات والكبار والصغار ومن نعرف ومن لا نعرف.

وسبب ذلك انفكاك الخلف عن السلف، ببعدهم عن الاطلاع على أحوالهم وأخلاقهم وسِيَرِهم التي كانت صفحة بيضاء في جبين الإسلام.

ومع محبة الناس قاطبة للسلف الصالح، إلا أنه قل من يُعْنى بأخبارهم التي تذكي القلوب وتحييها، وتشحذ الهمم وتصقلها وتبعث الأمل في أن يكون خلف الأمة كماضيها، بل تتنزل بذكرهم الرحمات كما قالوا:

أَطْرِبْ بذِكْرِ الصالحين وغنِّ لي ... فبذكرهم تتنـزلُ الرحمـاتُ

وقالوا أيضًا:

أعِدْ ذِكْرَ نَعمانٍ أعِدْ إن ذِكرَه ... من الطِيْبِ ما كرَّرْتَـهُ يتضـوَّعُ

ومن هؤلاء القليل الذين بارك الله في أوقاتهم وأقلامهم فضيلة الشيخ رضا بن عبد الحميد بن فتح الله، الذي أجاد في ذكر رواياتهم وأخبارهم وحكاياتهم الصالحة النافعة وأفاد، فقد أسهر ليله في بساتين حكايات الصالحين، وأخرج منها باقة عطرة تنضح عبيرًا ذكيًا، وعودًا هنديًا، جمعها في هذا السفر القيم الذي سماه: «أدب السلف في التعامل مع الناس».

وقد تقلبت في أفنانه الوارفة، وتذوقت قطافه اليانعة، وشممت منه ريحًا يهز المشاعر، ويُجدد الإيمان، ولا ريب، فقد قال الله تعالى لنبيه وصفيه الذي أدبه فأحسن تأديبه: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود:١٢٠] بل قال له: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠].

وذلك لأن في سرد أخبار هؤلاء الأخيار عبرة لأولي الأبصار، فإن هذه السير كالمرآة لمعرفة عيوب النفس، حيث ينظر المرء من خلالها آفات نفسه فيزكيها بالتخلي عن الرذائل، والتحلي بالفضائل، وهذه هي حقيقة الأدب كما قال عبد الله ابن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ: «فقد أكثر الناس القول في الأدب ونحن نقول: إنه معرفة النفس ورعوناتها، وتجنب تلك الرعونات».

فجمع لنا الشيخ رضا -حفظه الله تعالى- هذه الآداب بأسلوب سهل معاصر، وتقسيمات متعددة نافعة، فأفاد وأجاد، ولعل بها يحصل الإسعاد، لمن يقرؤها مستفيدًا، وللخير مريدًا، فأجزل الله له المثوبة، وأصلح له الحال والمآل بمنه وكرمه.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه الفقير إلى عفو الله

أحمد بن عبد العزيز الحداد

كبير المفتين بدائرة الشئون الإسلامية

والعمل الخيري بدبي

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠، ٧١].

أما بعد:

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: «أربعُ خلال إذا أعطيتهن فلا يضرك ما عزل عنك من الدنيا: حُسن خليقة، وعفاف طعمة، وصدقُ حديث، وحفظ أمانة»[(١)].

وقالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «اللَّهُمَّ أحسنتَ خَلْقي، فأحسِن خُلُقي»[(٢)].

---

(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٢٨٨) في باب: «حسن الخلق إذا فقهوا»، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٧٣٣).

(٢) رواه أحمد بإسنادٍ صحيح (٢٣٨٧١)، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (١/ ١١٣/ ٧٤).

لقد ضرب سلفنا الصالح أروع الأمثلة وأرقاها في تحقيق الأدب الحسن والسمت الصالح، فكانوا قدواتٍ يُحتذى بها، ومصابيحَ يُستضاءُ بها، ومعينًا صافيةً يُنْهَلُ منها، ذلك امتثالًا وتأكيدًا للمعاني السامية الرفيعة التي دعا إليها القرآن العظيم، والمثل العليا التي تممتها السنة النبوية على نبيها أفضل الصلاة والتسليم.

ولقد عشت مع سيرتهم العطرة أجمل الساعات وأبركها عندما طالعت هذا المؤلف القيم الذي كتبه الشيخ رضا عبد الحميد -وفقه الله-، فسعدت بما سطره فضيلته، حيث أجاد فيه وأفاد، ورتب عناوينه في أحسن إعداد، فجاء سفرًا متينًا يبهج الفؤاد، وتستلذ بمطالعته العباد، ولا ترومه النقاد، فبورك في جهده ورحمنا الله وإياه يوم المعاد.

إنه لحري بنا أن نطالع سير السلف الصالح، ونسعى جاهدين في التأسي بسمتهم وأدبهم، وكم نحن بحاجة في هذا الزمان إلى فقه أدب، وحسن تعامل مع الناس لاسيما أهل العلم منهم، فقد أُثِّرَ عن العلماء الربانيين قولهم: «الأدب خير ميراث»، وقال أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ: «مجالس القوم أحب إلي من كثير من الفقه».

وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

صُنِ النفسَ واحملْها على ما يَزِينُها ... تَعِشْ سالمًا والقولُ فيك جميلُ

فلا تُرِيَنَّ الناسَ إلا تَجَمُّلا ... إنْ نَابَكَ دَهْرٌ أو جَفَاك خليلُ

وقال فضيلة الشيخ محمد بن الدناة الشنقيطي -حفظه الله-:

وارْعَ حقوقَ اللهِ غيرَ ناسٍ ... لِما عليكَ من حقوقِ الناسِ

فلا تُضَيِّعَنْ حقوقَهم ولا ... تكنْ بها عن حقِّه مشتغلا

فأَغِثِ الملهوفَ وانصرْ من ظُلِمْ ... وأَكْرِمِ الجارَ وصِلْ ذوي الرحم

وأطعمِ اليتيمَ والمسكينا ... وساعدِ المُعْسِرَ والمَدينا

وأوصلِ النفعَ لكلِّ جارِ ... ولو رأيتَهُ مِنَ الفجارِ

ولكنِ احذرْ أن يقودَكَ هواك ... لبيعِ أخراك بدنيا مَنْ سواك
واعتزِلَنْ مجالسَ الجمهورِ ... وابْعُد عنِ الفتنِ والشرورِ
فاجتنبِ الغلَّ الدفينَ والحسد ... ولا تُرِمْ ما عِشْتَ إيذاءَ أحدَ

وفي الختام لا يسعني إلا أن أرجو الله العلي القدير أن ينفع بهذا الكتاب، ويجزي مؤلفه خير الجزاء، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه:

عمر بن عبد العزيز بن محمد القاسمي

مدير مكتب وزارة العدل والأوقاف

برأس الخيمة

مُقَدِّمَة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وصفيه من خلقه وخليله، صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

أما بعد:

* فإن الأدب عنوان السعادة والفلاح.

وإن الأدب هو مفتاح الخير كله ويكادُ الأدب أن يكون الدين كله، ومن حرم الأدب حرم الخير كله، ومن تهاون بالأدب تعرض للشر كله.

قال يوسف بن الحُسين الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ: «بالأدب تَتَفَهَّمُ العلم، وبالعِلْم يصُّح لك العمل، وبالعمل تنالُ الحكمة، وبالحكمة تفهم الزُّهد، وبالزهدِ تتركُ الدنيا، وترغب في الآخرة، وبذلك تنالُ رضى الله تعالى»[1].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأدبُ المرءِ عُنوان سعادته وفلاحِه، وقلَّةُ أدبه عُنوان شقاوتِه وبَوارِه، فما استُجْلِبَ خيرُ الدنيا والآخرة بمثل الأدب، ولا اسْتُجلب حرمانها بمثل قلة الأدب»[2].

وقال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ: «من تهاون بالأدب عوقب بحرمان السنن، ومن تهاون بالسنن عوقب بحرمان الفرائض، ومن تهاون بالفرائض عوقب بحرمان المعرفة»[3].

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٢٥٠).
(٢) «تهذيب مدارج السالكين» (ص:٤٥٤).
(٣) المرجع نفسه (ص:٤٤٨).

وقال محمد بن إبراهيم أبو عبد الله العبدي البوشنجي رَحِمَهُ اللَّهُ: «من أراد العلم والفقه بغير أدب فقد اقتحم أن يكذب على الله ورسوله ﷺ»[(١)].

* وقد جاء في السُّنَّة النبوية ما يدل على أن الأدب ومكارم الأخلاق مفتاح كل خير بل هي الخير كله، وسبب للنجاة من السوء والخزي.

قال ﷺ: «مَا كَانَ الْفُحْشُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلاَّ شَانَهُ، وَلاَ كَانَ الْحَيَاءُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلاَّ زَانَهُ»[(٢)].

قال الطيب رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأشار بهذين إلى أن الأخلاق الرذلة السيئة مفتاح كل شر، بل هي الشر كله، والأخلاق الحسنة مفتاح كل خير بل هي الخير كله»[(٣)].

ولما أخبر النبي ﷺ خديجة رضي الله عنها بخبر الوحي، وأنه خائف على نفسه، فقالت له: «أَبْشِر، فوالله! لا يُخْزيك الله أبدًا، والله! إنك لتصل الرحم، وتصدقُ الحديث، وتحمل الكلَّ -كالإنفاق على الضعيف واليتيم والعيال- وتكسِبُ المَعْدُومَ -أي تكسب المال العظيم الذي يعجز عنه غيرك، ثم تجود به في وجوه الخير وأبواب المكارم- وتَقْري الضَّيفَ -أي تضيفُه وتكرمُه- وتُعين على نوائب الحق -أي على حوادثه في الخير-».

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال العلماء رضي الله عنهم: معنى كلام خديجة رضي الله عنها أنك لا يصيبك مكروه لما جعل الله فيك من مكارم الأخلاق، وكرم الشمائل، وذكرت ضروبًا من ذلك، وفي هذا دلالة على أن مكارم الأخلاق وخصال الخير سبب السلامة من مصارع السوء»[(٤)].

---

(١) «تاريخ دمشق» (٥٤/ ١٦٨)، و«سير أعلام النبلاء» (١٣/ ٥٨٦).

(٢) رواه أحمد (١٢٢٧٨)، والترمذي (١٩٧٤)، وابن ماجه (٤١٨٥)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٦٠١)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٦٥٥).

(٣) «فيض القدير» (١٠/ ٥٣٨٥).

(٤) «شرح النووي على مسلم» (٢/ ١٧٠-١٧٦).

*** وحَسْبُ المؤدبين وأصحاب الأخلاق الحسنة شرفًا ورفعة، أنهم متخلقون بأخلاق الله تعالى.**

ذكر المناوي مكارم الأخلاق الظاهرة، وأفاد أنها تنشأ من مكارم الأخلاق الباطنة، وقال: «فكل خلق من هذه الأخلاق كصدق الحديث، وحفظ الأمانة، وصلة الرحم، وإقراء الضيف، وغيرها مَكرُمَة لمن مُنحها يسعدُ بالواحد منها صاحبها فكيف بمن جمعت له كلها؟ والأخلاق الحسنة كثيرة وكل خلق حسن فهو من أخلاق الله تعالى، والله يحب التخلق بأخلاقه، فكل مَكْرُمة من هذه الأخلاق يُمْنَحُها العبد فهي له شرف ورفعة في الدارين»[(١)].

*** وقد عدّ العلماء الحاجة إلى الأدب كالحاجة إلى العلم، ومنهم من رحل في طلب الأدب كما يرحل في طلب العلم.**

عن الحجاج بن أرطأة رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «إن أحدَكم إلى أدبٍ حسنٍ أحوجُ منه إلى خمسين حديثًا».

وعن زكريا العنبري رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «علمٌ بلا أدبٍ كنارٍ بلا حطبٍ، وأدبٌ بلا علمٍ كروحٍ بلا جسمٍ».

وعن ابن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «قال لي مَخْلَدُ بن الحسين: نحنُ إلى كثيرٍ من الأدبِ أحوجُ منا إلى كثيرٍ من الحديث».

وعن إبراهيم بن حبيب بن الشهيد رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «قال لي أبي: يا بني! ايتِ الفقهاءَ والعلماءَ، وتعلم منهم، وخذ من أدبهم وأخلاقهم وهديهم، فإن ذاك أحب إليّ لك من كثيرٍ من الحديث»[(٢)].

---

(١) «فيض القدير» (٦/ ٣).

(٢) «الجامع لأخلاق الرَّاوي وآداب السّامع» (١/ ٨٠، ٨١، ٢٠١).

وعن إبراهيم بن بشار رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «نظر إبراهيم بن أدهم إلى رجل يكلم رجلًا فغضب حتى تكلم بكلام قبيح، قال: فقال له: يا هذا اتق الله، وعليك بالصمت والحلم والكظم. قال: فأمسك. ثم قال له: بلغني أن الأحنف بن قيس قال: كنا نختلف إلى قيس ابن عاصم نتعلم الحلم كما نختلف إلى العلماء لِتَعَلُّمِ العلم، قال: فقال له: لا أعود»[(١)].

وكان محمد بن عُبَيد الطنّافسي رَحِمَهُ اللَّهُ يقول لأصحاب الحديث: «ألا تكونون مثل عيسى بن يونس؟ كان إذا أقبل إلى الأعمش ومعه الشباب والشيوخ ينظرون إلى هدْيه وسمْتِه»[(٢)].

وعن مالك بن أنس رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «قال ابن سيرين رَحِمَهُ اللَّهُ: كانوا يتعلمون الهَدْي كما يتعلمون العلم، قال: وبعث ابن سيرين رجلًا فنظر كيف هَدْيُ القاسم وحالُهُ»[(٣)].

وقيل لابن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ: «أين تريد؟ قال: إلى البصرة، فقيل له: مَنْ بَقي ؟ فقال: ابنُ عون آخُذُ من أخلاقِهِ: آخذُ من آدابه».

وكان عليُّ بن المدينيِّ: «وغير واحدٍ يحضرون عند يحيى بن سعيد القطان ما يريدون أن يسمعوا شيئًا إلا أن ينظروا إلى هديه وسمته»[(٤)].

*** لقد كانوا يجدون أثر الآداب والأخلاق في قلوبهم وعباداتهم.**

عن محمد بن عُبادة المعافري رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «كنَّا عند أبي شُرَيْح عبد الله بن شُرَيْح: فكثرت المسائل، فقال: قد دَرِنَتْ قلوبكم -اتسخت-، فقوموا إلى خالد بن حُمَيْد المهدي، اسْتَقِلُّوا قلوبكم[(٥)]، وتعلموا هذه الرغائب والرقائق، فإنها تُجَدِّد العبادة، وتورث الزهادة،

---

(١) «تاريخ دمشق» (٢٦/ ٢١٩).
(٢) «تاريخ دمشق» (٥١/ ٢٦).
(٣) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (١/ ٧٩).
(٤) «الآداب الشرعية» (٢/ ٢٥٥).
(٥) اسْتَقَلَّ ، يَسْتقِلُّ ، اسْتِقْلالًا: تفرَّد بالشيء ، وجعله مُلْكَهُ.

وتجر الصَّداقة، وأقلوا المسائل؛ فإنها في غير ما نزل تُقَسِّي القلب وتُورث العداوة»[١].

* ثم إن مَنْ سَبَر ادب السلف وخُلُقهم -أي: حَرَزَهُ، وتعرَّف عمقه- من كتب الحديث والسير والتراجم والتاريخ والأدب وكان له حِسٌّ مُرْهَفٌ، قال: رحم الله السلف لقد كان الواحد منهم بألف في عالم الإنسانية.

فقد قال النبي ﷺ: «ليس شيءٌ خيرًا من ألفٍ مثلهِ إلا الإنسان»[٢].

قال المناوي رَحِمَهُ اللَّهُ: «يشير ﷺ إلى أنه قد يبلغ بقوة إيمانه وإيقانه وتكامل أخلاق إسلامه إلى ثبوت في الدين وقيام بمصالح الإسلام والمسلمين بعلم يكسبه وينشره، أو مالٍ يبذله أو شجاعة، يسد بها مسد ألف».

وقد نظمها بعضهم فقال:

والنـــاسُ ألـــفٌ مـــنهمُ كواحـــدٍ ... وواحـــدٌ كـــالألفِ إن أمْـــرٌ عـــني[٣]

وفي هذا المعنى أنشد الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ:

ولم أرَ امْثـــالَ الرِّجـــالِ تفاوتًـــا ... لـــدى المَجْـــدِ حتَّـــى عُـــدَّ ألـــفٌ بواحـــدِ

ولما مات خالد بن الوليد رضي الله عنه بالمدينة، خرج عمر رضي الله عنه في جنازته وإذا أمه تندبه، وهي تقول:

أنـــت خـــيرٌ مـــن ألـــفٍ ألـــفٍ مـــن القـــومِ ... إذا مـــا كُبَّـــت وجـــوهُ الرجـــالِ

فقال عمر رضي الله عنه: «والله صدقتْ إنْ كان لَذَلِك»[٤].

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ١٨٣).
(٢) ينظر «السلسلة الصحيحة» (٢١٨٣).
(٣) «فيض القدير» (١٠/ ٥١٨٩)، والبيت قاله ابن دُرَيْد.
(٤) «تاريخ دمشق» (١٨/ ١٩٥).

فيا ليت الفيلسوف اليوناني الذي ذكره المنفلوطي رَحِمَهُ اللَّهُ لما سئل: ما يصنع بمصباحه؟ -وكان يدور به في بياض النهار- فقال الفيلسوف: «أفتش عن إنسان»، ليته رأى أدب سلفنا الصالح ليعلم أن هناك شيئًا اسمه إنسانية.

*** وإن من سَبَر أدب السلف وخلقهم قال: رحم الله السلف، لقد كانوا هُم الناس.**

هم الناس الذين وصفهم أبو مسلم الخولاني رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: «كان الناس ورقًا لا شوك فيه، وإنهم اليوم شوك لا ورق فيه، إنْ سابتهم سابوك، وإن ناقدتهم ناقدوك، وإن تركتهم لم يتركوك»[(١)].

وقال أبو نعيم -الفضلُ بن دُكين رَحِمَهُ اللَّهُ-: كثُرَ تعجُّبي من قول عائشة رضي الله عنها:

ذهب الذين يعاشُ في أكنافهم ... وبقيت في خَلَفٍ كجلدِ الأجْرَبِ

لكني أقول:

ذهب الناسُ فاستَقَلُّوا وصِرْنا ... خَلَفًا في أراذلِ النَّسْنَاسِ

في أناسٍ نَعُدُّهم من عَديد ... فإذا فُتِّشوا فليْسوا بناسِ[(٢)]

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «ذهب الناسُ، وبقي النَّسْناسُ». قيل: وما النسناسُ؟ قال: «الذين يتشبهون بالناس وليسوا بالناس»[(٣)].

وقال إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ذهب الناس، وبقي النسناس، وما أرَاهم بالناس، وإنما غُمسوا في ماء الناس»[(٤)].

---

(١) «الزهد» للإمام أحمد (ص:٢٩٧)، و«حلية الأولياء» (٣/ ١٨٩).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٠/ ١٥٦)، واستقلوا: أي مَضَوا وارتحلُوا.

(٣) «حلية الأولياء» (١/ ٤٠٤).

(٤) «تاريخ دمشق» (٦/ ٢٨٠).

*** وإن من سَبَرَ أدب السلف وخلقهم، قال: رحم الله السلف، لقد كانوا همُ الرجال.**

الرجالُ الذين سُئل عنهم أبو حفص النيسابوري رَحِمَهُ اللَّهُ قيل له: من الرجال؟ قال: «القائمون مع الله تعالى بوفاء العُهود، قال الله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾». [الأحزاب:٢٣][(١)]

الرجال الذين قال عنهم حمدون بن أحمد القصار رَحِمَهُ اللَّهُ: «من نظر في سير السلف عرف تقصيره، وتخلُّفه عن درجات الرجال»[(٢)]

وقال عبد العزيز بن أبي رواد رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا ذُكرتْ أحوالُ السلف بيننا: افتضحنا كلنا»[(٣)]

الرجال الذين تمناهمُ إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ اللَّهُ حيث قال: «أيُّ دين لو كان له رجال»[(٤)]

همُ الرجالُ وغَبْنٌ ان يقالَ لمن ... لم يتصفْ بمعاني وَصْفِهم رجلُ

هم الرجال الذين قال عنهم عبد الله بن عبد الله بن مَعْمَر بن حَزْم الأنصاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «ليت لنا مثل أخلاق أبائنا مع إسلامنا»[(٥)]

*** ولما بَعُدَ البون -المسافة- بين الخلف والسلف، واختلف الأدب عن الأدب والخُلق عن الخُلق ظن من سَبَرَ أدبهم وأخلاقهم أنها كانت أحلامًا.**

عن عيسى بن إسماعيل رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «حدثنا ابن عنبسة، قال: كانت للناس جِلّة ونابتة، وكانت النابتة تأخذُ عن الجلة، فذهبت الجلة والنابتة، ثم جاء قوم يسمعون تلك الأخلاق كأنها أحلام»[(٦)]

---

(١) «صفة الصفوة» (٤/ ١٠٨).
(٢) المرجع نفسه (٤/ ١٠٩).
(٣) «العوائق» (ص:٤٨).
(٤) «المجالسة وجواهر العلم» (٣/ ٢١١).
(٥) «تاريخ دمشق» (٣١/ ٢٢٦).
(٦) «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ١٧٥).

وما ذلك إلا لبعد البَوْنِ الذي قال عنه عمر بن الحارث رَحِمَهُ اللَّهُ: «كنت متى شئتُ أن أجدَ من يَعِدُ ويُنجز وجدتُه، فقد أعياني من يعدُ ولا ينجز».

وقال: «وكانوا يفعلون ولا يقولون، فصاروا يقولون ولا يفعلون، ثم صاروا لا يقولون ولا يفعلون»[(١)].

والذي قال عنه الحسن بن أبي الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «لقد أدركتُ أقوامًا لو رأوا خياركم لقالوا: ما لهم من خَلَاقٍ، ولو رأوا شراركم لقالوا: أما يؤمن هؤلاء بيومِ الحساب؟»[(٢)].

*** ومما لا شك فيه أن المسلمين السابقين الأولين قد انتفعوا برؤية السلف في زمانهم فاتعظوا بلَحظِهم، وتهذبوا برؤيتهم.**

يقول أحدهم: «كنت إذا أحسست من قلبي قسوة أتيت محمد بن واسع فنظرت إليه نظرة، قال: فكنت إذا رأيت وجهه رأيت وجْهَ ثَكْلى»[(٣)].

قال: وسمعته يقول: «أخوك من وعظك برؤيته قبل أن يعظك بكلامه»[(٤)].

وقال الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: «كنتُ كلما وجدتُ في قلبي قسوةً أتيتُ محمد بن المنكدر، وكان يجتمع عنده الصالحون ليقتبسوا من هديه وصلاحه، فأنظر إليه نظرة فأتَّعِظُ بنفسي أيامًا»[(٥)].

*** ومن أراد الانتفاع بأدب السلف وأخلاقهم ممن جاء بعدهم، وبَعُدَ البون بينه وبينهم، فليطالع سيرهم، وليقرأ كتبهم، ليعيشَ معهم بروحه ويراهم بأذنه.**

---

(١) «المجالسة وجواهر العلم» (٣/ ٥٣٨).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (٦/ ١٩٧).
(٣) الثاكِل والثَّكلان: الذي فقد ابنًا عزيزًا، فشعر بالحزن الشديد، والمؤنث ثاكِلَة وثَكْلَى، والجمع ثكالى.
(٤) «المجالسة وجواهر العلم» (٢/ ٣١).
(٥) «رسالة المسترشدين» «حاشية أبي غدة» (ص:١٠٢).

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «عليكم بملاحظة سير القوم ومطالعة تصانيفهم، وأخبارهم، والاستكثارُ من مطالعة كتبهم رؤيةٌ لهم»، كما قال:

فـــاتني ان ارى الـــديارَ بطَـــرْفي ... فلعلـــي ارى الـــديارَ بـــسمعي [١]

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ أيضًا: «وقد كان جماعة من السلف يقصدون العبد الصالح للنظر إلى سمته وهديه، لا لاقتباس علمه، وذلك أن ثمرة علمه هديه وسمته، فافهم هذا وامزج طلب الفقه والحديث بمطالعة سير السلف والزهاد في الدنيا ليكون سببًا لرقة قلبك» [٢].

فيا أيها السلف المؤدبون المهذبون:

جسمي معي غيرَ ان الرُوحَ عندكم ... فالجسمُ في غربة والروحُ في وطنِ

فليعجبِ الناسُ مني ان لي بدنا ... لا روحَ فيه ولي روحٌ بلا بدنِ [٣]

*** وها أنا ذا قد جمعت جملا من أدب السلف في التعامل مع الناس في مؤلف مفرد لعله أن يكون لَحْمَةً [٤] بيننا وبينهم، لعل انفسنا أن تتآلف مع انفسهم، وأرواحنا تتلاقى على فضائلهم.**

قال الرافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإنه ليس الوعظُ تأليفَ القول للسامع يسمعُه، لكنه تأليفُ النفس لنفس أخرى تراها في كلامها، فيكون هذا الكلام كأنه قرابة بين النفسين، حتى لكأن الدمَ المتجاذبَ يجري فيه ويدورُ في ألفاظه!!» [٥].

---

(١) «الآداب الشرعية» (٢/ ٣٧٤).

(٢) «صيد الخاطر» (ص:١٦٥).

(٣) «البداية والنهاية» (١٣/ ١٤٧) من قول: أبي الفتوح: نصر بن علي البغدادي.

(٤) اللُّحْمَةُ: من الثوب خيوطُ النسيج العرضيّة يُلحم بها، واللُّحْمَةُ: القرابة، ومنه قول النبي ﷺ: «الولاءُ لُحْمَةٌ كلحْمَةِ النسَّب» أي: قرابةٌ كقرابة النَّسب، وكلا المعنيين مقصود عندي.

(٥) «وحي القلم» (٢/ ١٦٣).

*** وقد جاء في السُّنَّة النبوية وكلام السلف ما يدل على أن من سلك طريق قوم نزل منازلهم.**

فقد أخرج أبو نعيم في «أخبار أصبهان» وابن عساكر في «التاريخ»، عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه مرفوعًا: «كما لا يُجْتَنى من الشّوك العَنبُ؛ كذلك لا يَنْزل الفُجَّارُ منازلَ الأبرار، وهما طريقان فأيها أخذتم أدركتم»[(١)].

قال المناوي رحمه الله: «فمن سلك طريق أهل الله ورد عليهم فصار من السعداء، ومن سلك طريق الفجار ورد عليهم وكان منهم فصار من الأشقياء. والإنسان مع من أحب، ومن تشبه بقوم فهو منهم، والعبد يبعث على ما مات عليه»[(٢)].

وقيل للحسن رحمه الله: «سبقنا القومُ على خيلٍ دُهْمٍ، ونحنُ على حُمُرٍ مُعَقَّرةٍ. فقال: إن كنت على طريقهم، فما أسرع اللَّحاق بهم»[(٣)].

وتذكر حلاوة الوصال، يهُن عليك مُرُّ المجاهدة.

وما أنت بالمشتاق إن قلت بيْنَنا ... طوالُ اللّيالي أوْ بعيدُ المفاوِز

أبي عبد الرحمن رضا بن عبد الحميد فتح الله

مصر - البحيرة - كوم حمادة - الزعفراني

من إمارة رأس الخيمة

غرة ذي القعدة ١٤٢٦هـ

---

(١) ينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٠٤٦).

(٢) «فيض القدير» (٩/ ٤٥٢٩).

(٣) «الفوائد» (ص:١١١).

لا يطمعون في رضا الناس، ويؤثرون رضا الله تعالى

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «الناسُ غايةٌ لا تُدْرَكُ، وليس لي إلى السلامة من سبيل، فعليك بما ينفعك فالزمه»[(١)]

وقال رجلٌ للحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ قومًا يجالسونك؛ ليجدوا بذلك إلى الوقيعة فيك سبيلًا، فقال: هَوِّنْ عليك يا هذا، فإني أطمعت نفسي في الجنان فطمعت، وأطمعتها في النجاة من النار فطمعت، وأطمعتها في السلامة من الناس فلم أجد إلى ذلك سبيلًا، فإن الناس لم يرضوا عن خالقهم ورازقهم، فكيف يرضون عن مخلوق مثلهم»[(٢)]

وقال موسى عليه السلام: «يا ربِّ إن الناس يقولون فيّ ما ليس فيّ. فأوحى الله إليه: «يا موسى لم أجعل ذلك لنفسي فكيف أجعله لك؟»[(٣)]

وقال مالك بن دينار رَحِمَهُ اللَّهُ: «منذُ عرفتُ الناسَ لم أفرحْ بمدحهم ولم أكره مذمتهم، قيل: ولِمَ ذلك ؟ قال: حامدُهم مُفْرِطٌ، وذامُّهم مُفَرِّطٌ»[(٤)]

فلما علم الصالحون ذلك آثروا رضا الله تعالى على رضا الناس.

قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما أحدٌ إلا وله مُحِبٌّ ومُبْغِضٌ، فإن كان لا بد من ذلك فليكنِ المرءُ مع أهل طاعة الله عز وجل»[(٥)]

وقال الشاعر:

اعملْ لنفسك صالحًا لا تحتفل ... بظهورِ قيلٍ في الأنامِ وقالِ

فالخلقُ لا يُرجى اجتماعُ قلوبهم ... لا بد من مثنٍ عليك وقال

---

(١) «حلية الأولياء» (٩/ ١٣٠).
(٢) «البداية والنهاية» (٩/ ٣١٨).
(٣) «الآداب الشرعية» (١/ ٣٨).
(٤) «تاريخ دمشق» (٥٩/ ٣٠٧).
(٥) «حلية الأولياء» (٩/ ١٢٤).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا مع أنَّ رضا الخلق لا مقدورٌ ولا مأمورٌ، ولا مأثور، فهو مستحيلٌ بل لابد من سُخطهم عليك، فلأن يسخطوا عليك، وتفوز برضا الله عنك أحبُّ إليك وأنفع لك من أن يسخطوا عليك والله عنك غيرُ راضٍ، فإذا كان سُخْطُهم لابدَّ منه -على التقديرين- فآثِر سُخْطَهم الذي يُنالُ به رضا الله، فإن هم رضُوا عنك بعد هذا، وإلا فأهون شيءٍ رضا من لا ينفعك رضاه ولا يَضرُّك سُخْطَه في دينك، ولا في إيمانك، ولا في آخرتك»[(١)].

وكتبت عائشة رضي الله عنها إلى معاوية رضي الله عنه: «سلامٌ عليك، أما بعد، فإني سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من التمس رضا الله بِسَخطِ الناس كفاهُ الله مُؤْنَة الناس، ومَنِ التمس رضا الناس بسَخطِ الله، وكله الله إلى الناس»، والسلام عليك»[(٢)].

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «العاقل من يحفظ جانب الله ﷻ وإن غضب الخلق، وكل من يحفظ جانب المخلوقين ويضيع حق الخالق يقلب الله قلب الذي قصد أن يرضيه فيسخطه عليه».

فينبغي أن يحسن القصد لطاعة الخالق، وإن سخط المخلوق، فإنه يعود صاغرًا، ولا يسخط الخالق، فإنه يسخط المخلوق، فيفوت الحظان جميعًا[(٣)].

---

(١) «تهذيب مدارج السالكين» (٢/ ٦٤٩).
(٢) رواه الترمذي(٢٤١٤)، وصححه الألباني.
(٣) «صيد الخاطر» (ص:٣٤٣).